الفصل الثانى

البَارُودى فى عصـره

١٢٥٥ — ١٣٢٢ هـ ؛ ١٨٣٨ — ١٩٠٤ م

١ — حياته

هو محمود سامى البارودى من أسرة جركسية ذات جاه ونسب قديم ، فأبوه حسن حسنى البارودى كان من أمراء المدفعية ، ثم صار مديراً لبربر ودنقلة فى عهد محمد على ، وجده لأبيه عبد الله الجركسى . والبارودى نسبة إلى « إيتاى البارود » بمديرية البحيرة ، وكان أحد أجداده ملتزماً لها . وينتسب أجداده إلى حكام مصر المماليك .

وتيتم البارودى صغيراً وهو فى السابعة من عمره ، فحرم بذلك حنان الأب ورعايته . وتلقى دروسه الأولى فى البيت حتى بلغ الثانية عشرة ، ثم التحق بالمدرسة الحربية مع أمثاله من الجراكسة والأتراك ، وأبناء الطبقة الحاكمة ، وتخرج فى المدرسة الحربية سنة ١٨٥٤ وهو فى السادسة عشرة من عمره فى عهد عباس الأول. وكان عباس هذا من المعوقين للنهضة ، فقد خمدت فى عهده روح الحماسة فى الجيش ، بل سرح معظمه ، وأقفرت ميادين القتال من ألوية مصر ؛ ولم يكن عهد سعيد أحسن حالا من عهد عباس ، فلم يجد البارودى — كما لم يجد زملاؤه — عملا يعملونه بعد تخرجهم ؛ أما هم فقد طاب لهم عيش الرخاء والدعة ، وسرهم البعد عن ميادين القتال ، ولكنه أحس دونهم بألم ممض ، لأنه لم يشترك فى حرب كما اشترك آباؤه ، وكم كان يود أن يحقق عن طريق الجندية آمالا ضخمة ، وأمانى عريضة ، ودفعه هذا الألم إلى طلب العوض عن المعارك الحقيقية بمعارك موصوفة مدونة فى صفحات التاريخ ، فعكف على كتب الأقدمين — وقد

يسر له سبيل الحصول عليها — يلتهمها التهاماً . وكانت ملكة الشعر كامنة فى حنايا صدره ، فراقه من التراث الأدبى شعر الحماسة والفخر ، ووصف ميادين القتال ، وأعمال الأبطال ، ورأى فى هذا الأدب تصويراً للحياة حلوها ومرها من غزل وفكاهة وحكمة ورثاء ، فازداد شغفه به وحرصه على حفظه وتدوينه ، وتحركت نفسه لقول الشعر فقلد فحول الشعراء فى أروع قصائدهم . ولم يجد غضاضة — وهو من الطبقة الحاكمة — فى أن يقول الشعر[1] وقد سبقه إلى قوله من هم أعرق منه نسباً ، وأعلى حسباً ، من أمثال امرئ القيس وابن المعتز والشريف الرضى وأبى فراس وأضرابهم ، فلم لا يكون مثل هؤلاء ؟ ! ولم لا يرتفع بالشعر إلى منزلتهم ؟ إنه لن يكون مثل شعراء عصره مداحاً متملقاً ، أو نديماً منافقاً ، ولكن سيقوله فى أغراض شريفة تليق به وبمكانته . . .

الشعر زين المرء ما لم يكن ... وسيلة للمدح والذام

وما كان للبارودى أن يعرض عن قول الشعر ، ولو حاول ما استطاع ، وفيه طبع شاعر ، وقد ملك أداته اللغوية المعبرة :

تكلمت كالماضين قبلى بما جرت ... به عادة الإنسان أن يتكلما

فلا يعمدنى بالإساءة غافل ... فلا بد لابن الأيك أن يترنما

وفى هذا رد على من كان يعيب عليه قول الشعر من أبناء طبقته . ولكن مصر ضاقت به ، أو ضاق بها ، حيث لم يجد غنية لدى الدولة تحقق آماله ، فسافر إلى الآستانة مقر الخلافة ، والتحق بوزارة الخارجية ، وهناك أتقن التركية ، وتعلم الفارسية ، ودرس آدابهما ، وحفظ كثيراً من أشعارهما ، ودعته سليقته الشاعرة ، فقال بالتركية وبالفارسية كما قال بالعربية .

ولما سافر إسماعيل إلى الآستانة بعد أن تولى أريكة مصر سنة ١٨٦٣ ليقدم آى الشكر على توليته ألحق البارودى بحاشيته ، ورأى فيه ما لم يره فى غيره ، فرجع به إلى مصر .

---

(١) كان لداته وأترابه من أبناء الذوات والحكام الجراكسة يعيرونه فيما بينهم بأمرين اثنين : أولهما انصرافه إلى الكتابة والشعر وثانيهما اندماجه فى المصرية والمصريين وهذا ما يفسر لنا وطنيته وخوضه غمار الثورة وكانت الجملة المأثورة التى يشير بها هؤلاء اللدات إليه فى معرض التعبير قولهم باللغة التركية : « هم كاتب هم ابن بلد » .

وظل البارودى يرتقى فى مناصب الجيش ، وفى فرسان الحرس الخاص حتى وصل إلى رتبة « قائمقام » . وتحقق له مناه بالاشتراك فى معارك جزيرة « كريت » حين ثارت على دولة الخلافة ، فأسهم إسماعيل بجيشه فى إخماد الثورة . وقد فتنت البارودى مناظر الجزيرة ، ومناظر المعارك ، فسجل ذلك كله فى شعره .

وتقلب البارودى فى مناصب الدولة ، وكان ذا حظوة لدى إسماعيل ، فاتخذه كاتم سره ، وسافر فى رحلتين سياسيتين إلى الآستانة فى مهمة خاصة ، ومكث بجوار إسماعيل اثنتى عشرة سنة يشاركه فى حكم مصر ، وتدبير شئونها . وفى سنة ١٨٧٨ أعلنت روسيا الحرب على تركيا ، وأرسل إسماعيل جيشاً يعاون الخليفة فى حربه مع عدوه ، وسافر البارودى مع الجيش ، وأبلى فى المعارك بلاء حسناً ، فأنعم عليه برتبة « اللواء » وبعدة أوسمة . وكان فى ميدان القتال ، والمناظر الخلابة ، والعالم الذى رآه ما ألهب شاعريته ، فوصف المعارك والناس والمناظر بشعر أخاذ بلغ به الذروة فى الوصف ، وأخذ يهتف باسم مصر ، ويحن إلى الأهل والوطن ، فانبعث منه الشعر قوياً مليئاً بالحياة .

ثم عاد من حرب البلقان ، وهو فى الأربعين من عمره ، فعين مديراً للشرقية فمحافظاً للعاصمة .

ولما ولى توفيق العرش قرب البارودى إليه ، وولاه وزارة الأوقاف ، وأصلح فيها ما وسعه جهده . وكان فى نفس الوقت وطنياً متشبعاً بروح الإصلاح فحار فى أمره بين ولائه للعرش ، وبين نزعاته الإصلاحية — وهو تلميذ جمال الدين ، وإن اشترك فى الوزارة التى أمرت بإبعاده عن مصر . ثم كانت حركة الجيش ، وإبعاد عثمان رفقى فتولى البارودى وزارة الحربية مع الأوقاف ، ولكن رياض باشا رأى نزعاته الشعبية فدس عليه عند توفيق فعزله ، ودفعه هذا إلى اعتزال السياسة ، والعيش بعيداً عن جو القلق والاضطراب فى الريف .

ولما اشتدت حركة الجيش عزل رياض باشا ، وتولى شريف ، ولم يقبل البارودى الاشتراك فى الوزارة إلا بعد أن ألح عليه توفيق إلحاحاً شديداً ، وأقسم له أن ليس فى نفسه شىء منه ، ولكن وزارة شريف ما لبثت أن استقالت ، فتولى البارودى رئاسة الوزارة ، وحاول أن يوفق بين الجيش والخديو ، ويصلح

الأمور بالرفق والهوادة ، ولكن الأمور تعقدت أمامه بمطالبة الجيش بعزل توفيق . ونازعته نفسه يومئذ إلى المجد المؤثل وإلى مكان أجداده المماليك الذين حكموا مصر فخاض الثورة مع الخائضين . بيد أن التيار كان شديداً ، وتدخلت إنجلترا وفرنسا فى الأمر ، فأحس البارودى الخطر ، وعلم أن لا قبل له بمواجهته ، فنصح لعرابى وإخوانه ، وصارحهم برأيه ، وحاول الاعتزال فى مزارعه ، ولكن هيهات وقد جرى مع الضباط شوطاً بعيداً ، وربط حظه بحظهم .

وأخفقت الثورة . ونفى مع زملائه إلى « سرنديب » ، فأقام بها سبعة عشر عاماً وبعض عام ، وظلوا سبعة أعوام فى مدينة « كولمبو » ، ولما دبت بينهم البغضاء ، وألقى كل منهم اللوم على صاحبه ، فارقهم البارودى ، وأمضى عشرة أعوام فى « كندى » ، وفيها تعلم الإنجليزية .

وفى المنفى قال القصائد الخالدة يبثها شكواه ، ويحن للوطن ، ويصف كل ما حوله ، ويراسل الأدباء ، ويتتبع أخبار بلاده ، فيرثى من مات من أهله وأحبابه وأصدقائه ، ويتذكر أيام شبابه وأويقات أنسه ، وما آل إليه حاله . ووجد فى الشعر عزاء أى عزاء ، فصار إمامه فى العالم العربى غير منازع ، ولكن طول النفى أورثه السقام والعلل ، فكف بصره ، وضعف سمعه ، ووهن جسمه ، وزاد أمره بؤساً أن الموت تخطف ابنته وزوجته وأصحابه ، فابتدأ الفناء يدب إليه . وهنالك رأى أولو الأمر أن يعود المنفيون إلى أوطانهم ، وعاد البارودى معهم « أشلاء همة فى ثياب » كما يقول . ولكن جاء وفى يمينه سفر الخلود ، وهو ذلك الشعر العلوى . وكان ذلك فى سنة ١٩٠٠ ، واستقبل مصر بقصيدته :

أبابل مرأى العين أم هذه مصر؟ . . فإنى أرى فيها عيوناً هى السحر

واستقبلته مصر بكل حفاوة وترحاب ، وكانت عودته عيداً للأدب الرفيع ، وصارت داره ندوة يؤمها الأدباء والشعراء القدامى والشادون فيه .

وعكف على تنقيح ديوانه ، وحذف ما لا يروقه منه وتدوين مختاراته ، وترتيبها ، وأخيراً فاضت روحه إلى بارئها ، وأسلم هذه الشعلة المتوهجة فى شوال سنة ١٣٢٢ هـ ، ديسمبر ١٩٠٤ م إلى الأجيال من بعده .

٢ – صورته الجسمانية والنفسية

كان البارودى فارع القامة حنطى اللون كث الشاربين عسلى العينين كستنائى الشعر وكان مظهره على الجملة يعطيك صورة فارس من فرسان العرب الأقدمين، وقد رسم لنفسه هذه الصورة من الفروسية والرجولة مشفوعة بصورة الشاعر الخطيب المتكلم فى أبيات أربعة هى هذه :

أنا مصدر الكلم البوادى بين المحاضر والنوادى
أنا فارس أنا شاعر فى كل ملحمة وناد
فإذا ركبت فإننى زيد الفوارس فى الجلاد[1]
وإذا نطقت فإننى قس بن ساعدة الإيادى[2]

شب البارودى معتداً بحسبه ونسبه ، فى عصر ساد فيه أبناء جنسه من الجراكسة والأتراك ، وكان البارودى يعرف هذا النسب ويعتز به فيقول :

أنا من معشر كرام على الدهـ ـر أفادوه عزة وصلاحا
عمروا الأرض مدة ثم زالوا مثلما زالت القرون اجتياحا

ويقول :

نمانى إلى العلياء فرع تأثلت أرومته فى المجد ، وافتر سعده
وحسب الفتى مجداً إذا طلب العلا بما كان أوصاه أبوه وجده

ثم تزود من فنون الجندية ونشئ نشأة عسكرية ، فكان لهذه النشأة ، وهذا النسب أثر عميق فى أخلاق البارودى . ولكن الزمن وصروفه قد حورت فى هذه الأخلاق ، ولا سيما ما يتعلق منها بمعاملات الناس ، فأخذ يجاريهم ويداريهم ، على أن كثيراً من صفاته الطبيعية ظلت ثابتة لم تتغير حتى وفاته .

كان البارودى فى صباه متوثب العزيمة ، واسع الآمال ، عزوفاً عن الملاهى يود أن يعتلى ذروة المجد قفزاً :

---

(١) لعله يشير إلى زيد بن مهلهل المسمى زيد الخيل لكثرة خيله . وفد على النبى فسر به وسماه زيد الخير . وكان فارع الطول جميل المحيا فارساً مغواراً شجاعاً .

(٢) خطيب العرب وشاعرها يضرب المثل بفصاحته ويقال إنه أول من وقف على شرف من الأرض وخطب وأول من قال « أما بعد » .

لهجٌ بالحروب لا يألف الخف ... ض ولا يصحب الفتاة الرداحا[١]
مسعَر للوغى أخو غدوات ... تجعل الأرض مأتما وصياحا[٢]
لا يرى عاتباً على شيم الدهـ ... ـر ، ولا عابئاً ، ولا مزّاحـا
يفعل الفعلة التى تبهر النـا ... س وترنو لها العيون طماحا[٣]

وظلت نغمة المجد تردد على أسلة لسانه أنشودة حلوة ، وكان فى نفسه شىء يود تحقيقه ، ويسعى له سعياً حثيثاً ، ولكنه لم يصرح به .

وفى ظمأ لم يبلغ الماء ريه ... وفى النفس أمر ليس يدركه الجهد
أود ، وما ود امرئ نافعاً لـه ... وإن كان ذا عقل ، إذا لم يكن جَدّ[٤]
وما لىَ من فقر لدينا وإنما ... طلاب العلا مجد ، وإن كان لى مجد

وما إن عضته الحوادث عضة دامية ، ونكأه الزمن نكأة قاسية ، حتى تطامن فى مطلبه وقال :

وكن وسطاً ، لا مشرئبّاً إلى السها ... ولا قانعاً ، يبغى التزلف بالصُّغر[٥]

وإذا كان فى صباه قد عزف عن النساء واللهو جدّاً منه وتزمتاً ، حتى لا ينصرف عن طلب العلا ، فإنه ما لبث حين جاءه الجاه والمال حتى غير نظرته فى الحياة ، وبات ذلك الفارس الذى يدل بشبابه وجاهه على الحسان ، ويجرى وراء اللهو ، ويتصيد مجالس الأنس والسمر ، ويقول :

ودعنىَ من ذكر الوقار فإننى ... على سرف من بغضة الحلماء
فما العيش إلا ساعة سوف تنقضى ... وذا الدهر فينا مولع بمراء

ويقول :

وإنّهُ بما شئت قبل مندمة ... يكثر فيها العناء والكمد
فليس بعد الشباب مقترح ... ولا وراء المشيب معتقد

---

(١) لهج بالحروب : مغرى بها مثابر عليها ، والفتاة الرداح : المكتنزة .
(٢) مسعر للوغى : المسعر : موقد نار الحرب . والوغى : الحرب .
(٣) الفعلة : بفتح الفاء العمل الحسن والجمع فعال بفتح الفاء ، وترنو : تنظر نظرة طويلة ، وطماحاً : متطلعة .
(٤) الجد : بفتح الجيم الحظ .
(٥) السها : كوكب خفى من بنات نعش .

أما الدين فله فى النفس حرمته ولكن :

إذا ما قضينا واجب الدين حقه ... فليس علينا فى الخلاعة من عذر

وكان كثير الفخر بالصفات الكريمة من مروءة ووداد ووفاء لا يفتأ يرددها فى شعره ، فهو وفى لأصدقائه ، لا يتغير وداده ولا يتبدل مهما جد من ظروف :

واخبرنى تجد صديقاً حميما ... لم تغير وداده الأهواء

صادقاً فى الذى يقول وإن ضا ... قت عليه برحبها الدهناء[1]

وليس هذا الوداد كلمة حلوة تقال فحسب ، ولكن يجب أن يتجلى فى أعمال الإنسان :

وإن وداد القلب ما لم يكن له ... دليل على أخلاقه لمريب

وكان فارساً عالى الهمة ، ذا فتوة ، وأنفة ، ونجدة ، وإباء ، وكرم فيقول :

إذا لم يكن إلا المعيشة مطلب ... فكل زهيد يمسك النفس جابر

من العار أن يرضى الدنية ماجد ... ويقبل مكذوب المنى وهو صاغر[2]

ويقول :

إذا أنا لم أعط المكارم حقها ... فلا عزنى خال ، ولا ضمنى أب

خلقت عيوفاً لا أرى لابن حرة ... علىّ يداً أغضى لها حين يغضب[3]

ويقول :

وجد بما ملكت كفاك من نشب ... فالجود كالبأس يحمى العرض والنسبا[4]

لا يقعد البطل الصنديد عن كرم ... من جاد بالنفس لم يبخل بما كسبا[5]

وهو شجاع جرىء ، يتمدح بصراحته وشجاعته الأدبية والحربية ، فهو لا يعرف النفاق ، ولا يسكت عن القبيح :

أنا لا أقر على القبيح مهابة ... إن القرار على القبيح نفاق

قلبى على ثقة ، ونفسى حرة ... تأبى الدنىّ ، وصارمى ذلاق[6]

---

(١) الدهناء : الصحراء . (٢) صاغر : ذليل .

(٣) العيوف : الذى ينصرف عن الشىء وهو محتاج إليه . أغضى : طأطأ بصره .

(٤) النشب : المال الأصيل غير المستحدث . والبأس : الشجاعة والقوة .

(٥) الصنديد : الشجاع .

(٦) الصارم : السيف . الذلاق : الحاد .

فعـــلام يخشى المـــرء فرقة روحه أوَليس عاقبة الحيـــاة فراق ؟
لا خير فى عيش الجبان يحـــوطه من جانبيـــه الذل والإمـــلاق[١]
عابوا عـــلىّ حميّتى ونـــكايتى والنـــار ليس يعيبها الإحراق[٢]

وهذه الصفات الحميدة ، وغيرها من الخلال الكريمة خليقة بأن تجعله محبوباً عند كثير من الناس ، وقد كان البارودى كذلك ، لم يتصل بشخص إلا أحبه ، وقدر فيه صفاته وفى ذلك يقول :

فأصبحت مأثور الخـــلال محبباً إلى الناس مرضى السريرة والجهر

وقد علمته التجارب أن الصراحة ، ومواجهة الناس بعيوبهم تجلب له كثيراً من المصاعب ، وأنه يجب أن يكون حذراً لا يندفع فى صداقاته وعداواته ، وفى هذا يقول :

ودار الذى ترجو وتخشى وداده وكن من مودات القلوب على حِذْر

ويقول :

يعيش المـــرء محبوباً إذا مـــا نحـــا فى سيره قصـــد السداد

وإذا كانت الحياة قد علمته كيف يدارى الناس ، فقد لقنته درساً آخر ، وهو أن اللهو والمرح والحياة الصاخبة تعجل بفناء شبابه ، وتورثه السقام والعلل عاجلا ، ولذلك عدل عن هذه الحياة ، وفى هذا يقول :

ولقد جريت مع الغواية والصبـــا جرى الـــكميت ، وللغرام سباق[٣]
ولبست هـــذا الدهـــر من أطرافه وخلعتـــه وقميصـــه أخلاق[٤]
فإذا الشباب وديعـــة وإذا الفتى هَدْى لفاغرة المنـــون يساق[٥]

هذه صورة سريعة لأخلاق البارودى كما وضحها فى شعره ، وهى أخلاق تبعث فى النفس الإكبار والإعجاب والمحبة .

---

(١) الإملاق : الفقر .
(٢) حميتى : عدم رضائى بالضيم والذل . ونكايتى : قتلى للأعداء وجرحهم .
(٣) الكميت : الجواد ذو لون أحمر قان ، وهو من صفات الجودة فى الخيل .
(٤) أخلاق : بال .
(٥) هدى : ضحية ، والمنون : الموت .

٣ — ثقافته

أعد البارودى ليكون جنديًّا، ولم يعد ليكون أديباً ، ولكنه حين تخرج فى المدرسة الحربية ، ووجد نفسه متعطلا ، أبت عليه نفسه الطموح أن يستمرئ اللهو والدعة ، فعكف على كتب الأولين يقرؤها بشغف ونهم ، وكانت قراءته فى كتب الأدب ، لا كتب اللغة والنحو ، يقول أستاذه وصديقه الشيخ حسين المرصفى « لم يقرأ البارودى كتاباً فى فن من فنون العربية ، غير أنه لما بلغ سن التعقل ، وجد من طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله ، فكان يستمع إلى بعض من له دراية ، وهو يقرأ بعض الدواوين ، أو يقرأ بحضرته ، حتى تصور فى برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية ، ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات والمخفوضات حسبما تقتضيه المعانى ، والتعليقات المختلفة ، فصار يقرأ ، ولا يكاد يلحن . ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب ، حتى حفظ الكثير منها دون كلفة ، واستثبت جميع معانيها ، ناقداً شريفها من خسيسها ، واقفاً على صوابها وخطئها »[1] .

والحق أن أثر القراءة والحفظ ظاهر فى شعر البارودى . ومن يطلع على « مختارات البارودى »[2] يشهد بحسن ذوقه ، ودقة اختياره ، وتأنقه فى غذاء عقله ، كما يشهد بكثرة محفوظه . ولا نعجب بعد هذا حين نرى البارودى متملكاً ناصية اللغة يتصرف فيها تصرف الخبير بأسرارها ، المطبوع على التكلم بها . وأغلب الظن أن مختاراته لم تحو كل ما حفظ من جيد الشعر العربى ، لأننا نلمح أثراً للشعر الجاهلى والإسلامى فى شعره ، من كلمات وعبارات ومعارضات ، وتشبيهات ، مع أن مختاراته لم تحو إلا شعراً عباسيًّا .

كانت عند البارودى الملكة الشعرية ، والملكة وحدها لا تكفى ، بل لابد لها من عدة تصقلها وتنميها وتعدها للبروز ناضجة قادرة خالقة . ودراسة

---

(١) « الوسيلة الأدبية » ص ٤٧٤ .

(٢) جمع البارودى مختاراته فى أربعة أجزاء كبيرة ، ومعظم ما فيها من الشعر لشعراء العصر العباسى .

البارودى الأدبية قد غذت هذه الملكة غذاء كاملا . لا من دواوين الشعراء وحدهم ، بل من كتب الأدب وطرائف القصص ، وأخبار العرب وقبائلهم وشجاعتهم ، وأبطالهم ، وعدائيهم ، وأمثالهم وحكمهم ، وغير ذلك مما لا يستغنى عنه أديب . والأدلة على هذه المعرفة متوافرة فى ديوانه[1]. كانت إذاً قراءة كتب الأدب والتاريخ ، وحفظ الشعر المنتقى الجيد، هى عماد ثقافته الأدبية، على أن البارودى قد اطلع على آداب أخرى غير الآداب العربية، فقد مر بنا أنه حذق التركية والفارسية فى السنوات التى قضاها بوزارة الخارجية التركية ، وقال الشعر بهاتين اللغتين ، ولا يقول الشعر بلغة إلا من عرف أسرارها وتملك زمامها . كما أنه تعلم الإنجليزية وهو فى منفاه وترجم بعض آثارها . ولا شك أنه كان لهذه اللغات أثر كبير فى صقل ذوقه الأدبى ، وفى معانيه وأخيلته ، وتصويره للحوادث .

أضف إلى كل هذا ما أفاده من مدرسة جمال الدين الأفغانى ومن مدرسة الزمن ، فقد كان عصره مملوءاً بالحوادث الجسام ، فمن نهضة شاملة ، وخلق لأمة متمدينة ، ومن توليه أرقى المناصب فى هذه الدولة — إلى ثورات وفتن وحروب ومعارك ، ونفى وتشريد . وقد سافر مراراً إلى ميادين القتال فى خارج مصر ، ورأى عالماً لم يعرفه من قبل ، ومناظر جديدة . فتأثر بكل هذا ، وانفعلت له نفسه ، ونفثه شعراً جديداً فيه حيوية وفيه قوة .

وإذا أضيف إلى كل هذا موهبة عظيمة ، ووراثة فى قول الشعر كما أخبرنا البارودى :

أنا فى الشعر عريق ... لم أرثه عن كلاله
كان إبراهيم خالى ... فيه مشهور المقاله

زالت دهشتنا لتلك المكانة التى احتلها البارودى فى عالم الشعر .

٤ — علاقة البارودى بعصره

كان البارودى من صنع عصره وكان هو كذلك من صانعى عصره فقد

---

(١) لقد سقنا شواهد على سعة اطلاعه فى كتب الأدب فى كتابنا « فى الأدب الحديث ج ١ » ص ١٥٧ — ١٥٨ .

نشأته الجندية فارساً بطلا فاستخدم فروسيته وبطولته فى الحوادث التى أملى الدهر على مصر أن تشارك فيها . ونشأته السياسة من جهة وتأثير جمال الدين من جهة أخرى عيوفاً وطنيًّا حرًّا أبيًّا واستجابت طبيعة نفسه لهذه الأخلاق السامية فكان له فى هذا كله المواقف المحمودة وانعكس أثر ذلك على أعماله وأشعاره كما انعكست عليها صور المجتمع الذى عاش فيه .

اهتم الكتّاب والشعراء بمصير بلادهم ، وما يحوكه لهم الأجانب من مكايد ، وما يدبره المستعمرون من مؤامرات ، فأثاروا الحمية فى نفوس الشعوب المظلومة المستذلة التى غلبت على أمرها وقادها ملوكها وأمراؤها وزعماؤها إلى الدمار والبوار ، فى حين أن العدو يتربص بهم الدوائر . فوقف هذا الأدب يصرخ فى هذه الأمم صرخات مدوية علها تفيق من سباتها ، وتنهض لمحاربة عدوها ، وتتنبه إلى الختل والغيلة ، والغدر والحيلة وشتى الوسائل الزائفة التى عمد لها الطامع الجشع من وعود مصيرها الخلف ، ومواثيق غايتها النقض ، وأيمان يتبعها الحنث .

فى هذا العصر الذى نهضت فيه مصر ، وأخذت بأسباب التقدم والحرية ، وعملت على تحطيم أغلال الماضى ، والقضاء على مساوئه ، ومقاومة الحكام الفاسدين والحد من بطشهم وسلطانهم — عاش البارودى ، يجد أمامه نهضة قوية فى التعليم ، ومكتبات عامة تيسر العلم للراغبين فيه ، وصحفاً تنبه الأذهان ، وتعالج شتى المشكلات الشعبية ، ومطابع تعمل على إحياء التراث القديم ، وعلماء ينقلون إلى العربية كنوز الغرب ، وحلقات علمية منظمة توجه الفكر إلى الإصلاح العام الشامل . ولاشك أن البارودى قد أفاد من كل هذا وساعدته هذه النهضة على أن يتبوأ تلك المكانة الفريدة فى عالم الأدب والشعر ، فإن الشخصية التاريخية مهما عظمت وامتازت بعبقرية نادرة تدين بجزء من مكانتها إلى البيئة التى عاشت فيها ، فالكائن المستقل عما قبله وما بعده ، والذى لا يتأثر بشىء مما حوله ، ولا يتأثر بشىء مما سبقه أو أحاط به لا عهد للعالم به حتى اليوم ، فالمصادفة محال ، ولا يوجد فى هذا العالم شىء إلا وهو نتيجة من جهة وعلة من جهة أخرى ، نتيجة لعلة سابقة ، وعلة لأثر يتلوه .